وطني يبحث عن وطن

أمضيت عمري أحاول أن أفهم الحياة، أقف على كل صغيرة وكبيرة فيها، أراجع نفسي في كل تصرف، أحلل كل ظاهرة وكل ردٍّ فعل، تعبت.. جرَّبت أن أفهم.. فما زادت عليَّ الحياة شيئاً عن أولئك الذين يعيشون ولا يفهمون، ولم يخطر ببالهم يوماً أن يتكلَّفوا عناء حسٍّ أو مشقَّة تحليل لأيٍّ حدث جرى في حياتهم، وما وجدت نفسي إلا أتكبَّد المشقَّة، وما زالت تصاريف الحياة ذاك المجهول الذي خضته وعجزت أن أهدره.. وما زال مسار القدر يقتحم فكري بأحجية القناعة والطموح.. كيف أجمع بينهما ؟ وكيف أحافظ عليهما..؟

ترعرعت بين أكناف فقيرة تحيا وتموت، وكل همها رغيف الخبز ولقمة العيش، شعرت برغبة البقاء تسحقني.. تسخر مني.. تقول لي : ما الفرق بينك وبين الحيوان..؟ وبين النبات..؟ كلكم يناديني.. كلكم متشبِّث بي..!

قلت لنفسي : نعم..معها حق، فمن أجل غريزة

البقاء هذه تكيُّف الإنسان مع بيئته تماماً كما تكيَّفت الزرافة عندما علا عليها الطعام فطالت عنقها،.. آه.. أكاد أقول ليتنا كنا كالزرافة.. المهم أن نعلو قليلاً، فالإنسان في بيئتي قد ضاقت جيوبه فضاقت عليه أنفاسه.. ومع الزمن.. تكيَّف مع وضعه.. كيف..؟ !

لقد ضمرت أحلامه، وتعظَّمت طموحاته، وتضيَّق أفقه بقدر ضيق جيبه، فبات كافياً لكي يعيش أن يأكل ويشرب وينام..!

.. لكن.. لا.. إن كانت غريزة البقاء تناديني، فلا بدَّ أن يكون نداؤها مختلفاً، أيُّ أرض تلك التي أنزلتني منزلة المخلوقات الأخرى..؟ لأرى الناس هنا يقضون وطرهم بملء بطن والانزواء إلى جحر تأبى الشمس على نفسها أن تتلوَّى لتكون في حضنه، أوَيسمُّونه بيتاً ورائحة الشقاء تعشعش في خيشوم أطفالهم..؟.. ومن ثمَّ يسمُّونها.. القناعة..!

حاورتهم.. قلت لهم : تحرَّكوا، قالوا : لا نستطيع، قلت لهم : تعالوا نبادر معاً، قالوا : لن يتغيَّر شيء، قلت لهم : خطوة واحدة من كل منا تصنع فكرة، والفكرة تتحوَّل إلى حلم، والحلم بسعينا معاً يتحقق، قالوا : ولمَ كل هذا التعب..؟ قلت : لأجل أطفالنا، قالوا : يعيشون كما نعيش..!

جاء عار التخلُّف ودمغني معهم، تمرَّدت.. سرعان

ما قالوا.. خلع عنه ثوب الأصالة، هم لا يجيدون أصلاً مفهوم الأصالة، طرت عالياً وأنا أبحث حولي عن حياة تتفرَّد بها إنسانيتي، وتتكرَّم بها آدميتي.

ناداني صوت من السماء : أنت محور العالم، أنت منبع الوجود، لا تحسبنّ أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر، طاح بي شعور الفخر، ألذاتي كل هذه الأهمية..؟! فكيف إذن كانت مغمورة هناك..؟ وحاصرتني التساؤلات.. أمكمن تلك الأهمية في كينونة الذات..؟ أم في غيابها بين الذوات..؟ وكينونة الذات أتعني النرجسية..؟ وهل غياب الذات افتداءً للذوات الأخرى يعني الغيرية...؟ إن كان ذلك فمن يبني العالم..؟ ومن يعدمه..؟

تطلّعت حولي وأنا أطير عالياً في السماء، الآن تفتّحت عيناي.. الآن علمت أن في العالم أرضاً غير أرضي، وعائلات تفهم أكثر من عائلتي، وبيوتاً أجمل بكثير من بيتي، هناك من يجيد فنون راحة البال، ويحسن انتقاء العبارات، يتقن أصول التعامل مع أصناف البشر، وأنا غارق في بحر من العتمة والظلمة والغباء، وكأن كل ما حولي كان عبارة عن مشاهد تلفزيونية لا علاقة لها بكوكب الأرض.. ولا واقع إلا واقعي..!!.. وأي واقع.. ؟.. ما هذا..؟.. هل صرت ممن يتجرّد من ثيابه ويتبرّأ من مسقط رأسه..؟..

لكنهم محلّهم.. يراوحون.. من عشرات.. بل مئات السنين يراوحون، ما تجرؤوا مرة واحدة أن يتقدموا ولو خطوة كيلا تبعدهم تلك الخطوة عن الرغيف، أفإن سعيت للترقي وحيداً نزلت بي مفاهيم الإخلاص والطيبة والأصالة..؟ كثيراً ما ساءلت نفسي : أهذه هي الحقيقة..؟ أم أن كل ذلك انعكاس طبيعي لنفسيتي وظروفي ولكل ما تراه عيناي..؟ إن كان ذلك انعكاساً، فمتى يتم زفاف عينيّ على أصل الحقيقة ؟ ومتى أتمكن من نفسيتي وظروفي فأخذل عينيّ رضوخاً وإذعاناً للحقيقة..؟ فأنا لا أريد أن أبني نظريتي في الحياة على أحاسيس مسبقة لتتحول تصرفاتي إلى ردود فعل متراكبة، لأننا مع كل القيم والمبادئ التي عشنا عليها.. ما زال هناك انفصام كبير بين شخصيات هُيّئَ لنا أنها يجب أن تكون مثالية وبين تلك القيم، ولعلّ هذا ما زرع الشك في عينيّ وزعزع ثقتي بالحقيقة.

بعيداً عن كل التبعات لم يكن أمامي من خيار سوى متابعة الطيران، كانت لحظاتٍ رائعة وأنا بين الغيوم، قريب من الشمس، عالٍ في الأفق، لكنني تعبت ويبدو أن الطيران وحده ليس حلاً، فما من طير فوق إلا وله عش تحت، كان عليّ أن أنزل.. فوجئت برغبة البقاء تلحق بي، تسخر مني، لقد سحقتني حتى وأنا فوق..!!

أشعلت فيّ نار التحدي، ما زلت مصرًّاً على التفرّد.. لن يكون ندائي لها كنداء المخلوقات الأخرى.

.. حسن.. سأنزل.. لكن.. لن أنزل إلا إلى أرض تملأ الأفق حضارة وتشبع الإنسانية علماً وتميّزاً، بدأت أعيّن لنفسي مكاناً لأحطّ فيه، لم يكن ذلك بالأمر السهل، فالاجتهاد صعب وهو رهن التوفيق، ثم إني فوق الغيوم، ومهما كانت تلك الأرض توافق أحلامي، فهي أرض، وحلمي في السماء.

حاولت المقاربة بين حلمي وبين الأرض الملائمة له، شحذت ذاكرتي في كل ما قرأت عن دول الحضارة، بعد تخيير واستبعاد وتصويب، وبعد أن كادت طاقتي تفرغ من الطيران.. عيّنت الإقامة.

نزلت الهوينى، ثم حطّت رحالي أخيراً على منزل اخترته من أجمل المنازل، هو ليس بالقصر، فالقصر أرجوه في الجنة، لكنه بيت.. بيت حقيقي.. سَكَن.. يدخل إليه الهواء بحرية دونما اختناق، تحلّ الشمس ضيفة فيه طوال النهار، يملأ أفق النوافذ خضرة واتساعاً، ترفرف حوله العصافير، وبجانب فنائه.. هناك بركة جميلة يسبح فيها البطّ والإوز، إلى جانب ذلك.. هو ليس بعيداً البتة عن المدينة.. حيث عملي وعمل زوجتي، ومن حولي مدارس وجامعات أولادي، وعلى بضعة أمتار من حديقة المنزل يقبع كراج سياراتنا التي

لم نكن نستطيع أن نحلم بواحدة منها.. وأجمل من كل ذلك أنّ كل شيء.. كل شيء يلمع من النظافة، تلك النظافة التي كانت كابوساً مرعباً لدى أهل الأرض الأخرى، هنا.. الهواء له طعم مختلف ورائحة مختلفة، والخضرة لونها متألق، والسماء أشدّ صفاءً، وأحذيتنا لا تحتاج إلى مسح وتلميع دائبين، حتى عامل التنظيفات.. مهمته في قمة الرومانسية فهو مكلّف كل صباح بكنس ما تساقط على الأرصفة من الياسمين..!

أما هناك..!!.. آه.. لا أريد أن أتذكر شيئاً من ذاك الماضي الشقي، لن أقول لأحد إنني جئت من ذاك الماضي، فأنا ابن هذه الأرض، وابن هذه الحضارة، لن أتواصل مع أحد من هناك كيلا أشتمّ من كلامه رائحة الأسى التي نما جسده عليها، أريد أن أنسى.. أنسى.. فالنسيان في حالة كهذه نعمة، أريد أن أولد هنا، وكأنني ما فتحت عينيّ إلا هنا، وكأنني ما خُلقت إلا هنا..!

لكنهم هناك لم يتركوني بحالي، راحوا يرسلون إلي اللوم ويعيبون عليّ أنني تغيّرت، يحكون لأولادهم أنني تخليت عنهم وصرت ممن هم فوق، وأين كانوا عندما كنت تحت..؟

لمَ لمْ يأخذوا بيدي لنصعد معاً..؟ لمَ انسلّوا من حياتي ورحلوا تاركين حولي جبلاً من إشارات الاستفهام

ساعين وراء وطرهم من الشبع والنوم..؟ حتى إذا طرت وخلّفتهم ورائي بت المتهم والمقصّر، لمَ لمْ يفكر أحدهم أن يجهد نفسه بالصعود..؟ لمَ لزام عليّ أن أطأطئ وأدلي لهم العنب بالسلال.. بل.. ومن ثم أضعها في فيهم..؟ كل ذلك كيلا أصبح في نظرهم بؤرة فساد في قفص اتهام منصوب على برج عاجي معرّض للرجم..!!

مرّت الأيام وقد تناسيتهم حتى نسيتهم، عشت إنسانيتي، أرويت ظمئي النهم في الحضارة، لامست بحق دور الإنسان الحقيقي في الحياة، تساميت عن بقية المخلوقات، ورحت أبحر في محيطات العلم والثقافة والعمل الجاد المثمر، اعتادت عيناي منظر الجمال، واعتاد جسمي تقنيات الراحة، فبتّ أكثر أناقة وجمالاً وأشدّ نضارة، والأهم من هذا وذاك.. بت أكثر سكينة وشفافية..!!

في الحقيقة.. كم تعب أبناء هذه الأرض وهم يصنعون حضارتها ! كم ضحوا وتفانوا والتزموا..! كم أحبوا أرضهم حتى جعلوها بهذا الجمال..! أنأتي نحن بكل بساطة لنقطف من ثمار حضارتهم دون دفع الضريبة ؟.. لقد كان ثمن ضريبة تلك الحضارة غالياً، فقد سيطر عليّ هاجس وراح يطاردني.. ويقضّ مضجعي.. إنه هاجس الغربة، لا أجرؤ أن أصارح أحداً

بهذه الكلمة، فأنا ابن هذه الأرض، وفي الوقت نفسه أكاد أموت من هذا الشعور، ضائع بين الحنين وبين الحضارة، كلهم هنا يتذكرون طفولتهم، وتستعرض لهم مواقفها ما بين تفاصيل حياتهم، أما أنا فقد ضربت بطفولتي عرض الحائط ورميت ذاكرتي في سلة النفايات، فقدت تفاصيل حياتي، فما عدت أعرف نفسي إلا وأنا رجل، وكأنني خرجت من جدار.. تهت ما بين الوطن والفضيلة، أنا هنا لأرفع اسماً ليس اسمي، وعلماً ليس علمي، وهناك.. ليس لدي عمود أرفع عليه علمي..!!

ما الحل..؟!.. ليس من السهل أن يتخلى المرء ببساطة عن أمجاده، فالكرسي له بريق، والمنبر له بريق، وأن تسمع صوتك خارجاً من نفسك أيضاً له بريق، هذا البريق الذي قد يطغى في كثير من الأحيان على نور الإيمان، ليس لأن البريق أقوى، لكن المرء فينا إن اعتاد الجمال وصل إلى مرحلة شعر فيها أن الجمال هو جزء من وجوده، من ذاته، ولن يتركه بحال من الأحوال، ولأنه آمن عليه يلتفت إلى ما سواه ويسعى إليه..وبذلك تمر سلسلة الأمجاد دون توقف.

.. الحضارة التهمتني، العقلانية داست على كل مشاعري، لا وقت لديّ للألم.. لا وقت لديّ للتريّث.. هنا العمل فقط..

إما أن تعمل لتكون موجوداً، وإما أن تجد نفسك في الشارع تجترّ غريزة البقاء مجدداً.. وشبحها يسخر منك على طول الطريق..

.. لم أنا لست هنا.. ولست هناك؟.. ولمَ ليس هناك هنا..؟.. ولمَ أمضيت عمري أبحث عن المدينة الفاضلة، حتى إذا وقعت عليها تقطّعت وشائجي..؟!

فوجئت بغريزة البقاء تحاصرني.. تخنقني.. تهمس في أذني باستفزاز المنتصر : أما شبع قلبك بعد..؟! ألم تفهم بعد..؟! طابور قبلك من البشر دُفنوا في الأرض وحلمهم معلّق في السماء، ولن تدرك ضالّتك إلا بعد أن تلحق بهم..!!.